

العلاقات السياسية الدبلوماسية في المشرق العربي القديم "الزواج السياسي"

الدكتور جباع سيف الدين قابلو

قسم التاريخ

جامعة دمشق

عند استعراضنا للعلاقات الدولية في منطقة المشرق العربي وجواهرها، نفاجئ بمدى التطور الذي وصلت إليه العلاقات بين الدول الواقعة في هذه المنطقة، وإلى أي حد تشابكت علاقاتها فيما بينها. وفي سبيل تعزيز هذه العلاقات، لجأت هذه الدول إلى أساليب مختلفة في عقد المعاهدات وتبادل السفراء والهدايا إلى إجبار القوى الكبرى للقوى الأصغر منها على دفع الجزية وتقديم التسهيلات العسكرية.

والزواج بين أبناء البيوت المالكة كان من الأساليب التي اتبعتها دول الشرق القديم، لتعزيز علاقات الصداقة والتحالف فيما بينها. وهذا النوع من الزواج كان يقتصر عادة على الدول المتساوية فيما بينها من حيث القوة والمكانة، وغالباً ما كان يتبع توقيع اتفاق سلام ينهي حالة حرب بين دولتين متحاربتين.

ونحن في معالجتنا لموضوع الزواج السياسي، سوف نلقي الضوء على أهم الزيجات السياسية التي عرفتها منطقة الشرق العربي القديم، ماهي خلفيتها، والمفاوضات التي

عقدت من أجل إتمامها، وإلى أي مدى استطاعت هذه الزيجات من تحقيق أهدافها، أي تعزيز السلام بين البلدين المتصاهرين.

لعل أقدم زواج من هذا النوع وصلتنا أخباره هو ذلك الزواج الذي جمع بين الملك الأكادي نارام سين (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م.) مع ابنة أو شقيقة الملك العيلامي^(١)، (الذي ربما كان اسمه خيتا). ومن المعلوم أن بلاد عيلام كانت مؤلفة من عدد من دول المدن (زابشالي، أنشان، آمدون، سوزا... الخ)، وتميّزت العلاقات بين هذه البلاد والدول الأكادية بالعداء، فكل الملوك الأكاديين الذي سبقوا نارام سين على العرش الأكادي خاضوا حرباً في بلاد عيلام.

ويبدو أن هذا الوضع استمرّ حتى ما بعد عهد نارام سين، فابنه وخليفته الملك شاركاليشاري (٢٢٢٣-٢١٩٨ ق.م.) يذكر في أحد نصوصه أنه تصدّى لهجوم عيلامي على منطقة أكشاك في بلاد الرافدين، وبالتالي يمكن القول: إن هذا الزواج لم يؤد إلى النتيجة المرجوة منه، وقد استمرت هذه العلاقة في عهد ملوك سلالة أور الثالثة^(٢).

وهناك أكثر من حالة من هذا العصر تبين أن حكام هذه السلالة حاولوا كسب ودّ العيلاميين، عن طريق تقديم بناتهم كزوجات لحكام المدن العيلامية المختلفة. والملفت للنظر هنا أن حالات الزواج هذه جرت بعد أن تمكّن ملوك سلالة أور الثالثة من تحقيق انتصارات عسكرية مهمة على هؤلاء الحكّام. غير أنهم لم يتمكّنوا من فرض سيطرتهم على الأرض، ولذلك ربما لجؤوا إلى هذا الأسلوب، ونعود الآن لنذكر بعض الأمثلة على هذه الحالات.

فالملك شولجي وهو الملك الثاني من ملوك هذه السلالة، قدّم ابنته في عام حكمه الثامن كزوجة إلى حاكم مارخاشي، وفي العام الحادي والثلاثين أعطى ابنة أخرى إلى حاكم أنشان، ولكن يبدو أن هذا الحاكم لم يقتر خطوة الملك الرافدي، إذ إن أخبار العام

الرابع والثلاثين من حكم شولجي تخبرنا عن قيامه بتدمير هذه المدينة، ورغم ذلك فقد تجددت العلاقة بين الطرفين ومرة أخرى قام الملك شوسيين (٢٠٣٦-٢٠٢٨ ق.م.) بتقديم ابنته كزوجة إلى حاكم هذه المدينة وأرسلها إلى هناك مع هدايا قيمة، وكان قبلي ذلك قد خاض عدة حروب ضد مدن أخرى في عيلام، منها: آدامدون وزابشالي وخو خنوري، إذ ربما أراد شوسيين من خطوته هذه شق صف المدن العيلامية وكسب حليف له من بينها يساعده في حربه ضدها. وأخيراً فإن الحاكم الأخير من هذه السلالة إيبى سين (٢٠٢٧-٢٠٠٣ ق.م.) أعطى إحدى بناته إلى حاكم زابشالي^(٣).

ومن الطريف الإشارة إلى أنه لا توجد بحوزتنا معلومات تشير إلى زواج أي من هؤلاء الملوك من أميرات أجنبيات.

الزيجات السياسية في الألف الثاني ق.م.

يمكن اعتبار الألف الثاني ق.م. عصر الزيجات السياسية الكبرى، وذلك لاعتبارات عدة، أهمها أن هذه الزيجات انتقلت الآن من مجال الدول الصغيرة نسبياً إلى الدول الكبرى.

وقد حفظ أرشيف ماري معلومات وافية عن زواجين سياسيين أحدهما كان ناجحاً (من الناحية العائلية)، في حين لم يلاقِ الزواج الآخر نفس النجاح.

ونبدأ هنا بالزواج الأقدم ونقصد بذلك زواج ولي عهد آشور المدعو يسمح حدد من ابنة ملك قطنا أشخي حدد. وحتى ندرك الغاية من هذا الزواج، لا بد من القول إن مطلع القرن التاسع عشر ق.م. شهد صراعاً طويلاً وعنيفاً بين الدولة الآشورية القديمة وعلى رأسها شمشي حدد الأول (١٨١٠-١٧٨٠ ق.م.)، من ناحية ومملكة يحماض أو حلب وعلى رأسها ياريم ليم الأول من ناحية أخرى. وقد بحث كلا الطرفين المتحاربين عن حلفاء لهما في المنطقة، فدخلت حلب في حلف مع ماري ومدّت نفوذها إلى الألاخ غرباً قريباً من شواطئ البحر المتوسط، وبالمقابل تحالف

شمشي حدد مع كل من قطنا الجارة الجنوبية ليمحاضر، وكركميش جارتها الشمالية، محاولاً وضعها بين فكي كماشة. وفي حين منح كركميش إعفاءات جمركية وحرية التجارة مع بلاده، فإنه بعد احتلاله لماري قام بتعيين ابنه يسمح حدد نائباً عنه فيها وزوجه من ابنة ملك قطنا. ولكن هذا الزواج لم يكن موفقاً، فالرسائل التي تبادلها شمشي حدد مع ابنه يسمح حدد، تشير إلى أن الأخير لم يكن يعامل زوجته معاملة تليق بابنة ملك، وأكثر من ذلك فإنه كان ينوي طلاقها، ولكن الأب حرصاً منه على علاقته مع ملك قطنا، فإنه يطلب من ابنه بأن يعامل زوجته بالاحسن وأن يسكنها في القصر المسمى بقصر النخيل في ماري^(٤).

ورغم هذه العلاقة السيئة نسبياً بين الزوجين الملكيين، فإن التحالف بين الدولتين لم يتأثر نتيجة لذلك، وبقي هذا التحالف قائماً بينهما إلى ما بعد وفاة شمشي حدد الأول، ولكن استمرار هذا التحالف لم يكن باعتقادنا نتيجة هذا الزواج، بقدر ما كان نتيجة لما تمثله يحاضر من تهديد لهما.

أما الزواج الثاني الذي سنعرض له فهو زواج زمري ليم ملك ماري من الأميرة شيبنتو ابنة ملك يحاضر، ويمدنا أرشيف ماري بمجموعة من الرقم التي تبين كيف تمت عملية الزواج هذه.

فمن خلال هذه الرقم، تبين أن زمري ليم لم يتزوج من الأميرة شيبنتو إلا بعد أن استعاد عاصمة ملكه ماري بعد أن اغتصبها من أبيه الملك شمشي حدد الأول، مما اضطر زمري ليم للالتجاء إلى يحاضر، ويبدو أنه أثناء وجوده في يحاضر تعرف على الأميرة. كما وتبين هذه الرسائل أن زمري ليم لم يتوجه بنفسه إلى يحاضر وإنما أرسل مبعوثين عنه لإتمام هذا الزواج أي أنه زواجا بالوكالة. ولكن الوفد الذي ذهب إلى هناك واجهته صعوبات فالتجأ إلى أحد كبار رجالات بلاط ملك حلب ليسهل مهمته، وهنا نلاحظ مفارقة طريفة، وهي أن هذا الشخص كان قد وعد قبل بأن تقدم له

مغنية حتى يتدخل في الموضوع. ولذلك نرى وفد ماري يرسل إلى زمري ليم رسالة يستعجله فيها لإرسال هذه المغنية، ولكن الأمر لم ينته بهذه السهولة، فسومونابي والدة ملك يحماض مريضة جداً، لذلك فإن ملك يحماض طلب من الوفد: "...اذهبوا فمدني القوة وقصور، شاهوها، كلها". ولم يطل الأمر بالملكة الام، إذ سرعان ما توفيت وأعلن الحداد في القصر الملكي، وبعد انتهاء الحداد تم تقديم الهدايا للملك والملكة والأميرة شيبيتو. وكانت هذه هدايا عبارة عن حلي وأثواب متنوعة وأقمشة مختلفة وخراف كثيرة، وهنا نرى ملك يحماض مهتماً بمكان إقامة العروس فيجيبه الرسل بأنه سوف يكون مكاناً مناسباً، ولم يكتف رجال الوفد بذلك، بل سارعوا إلى ماري يطلبون فيها من الملك اختيار بيت أو قصر يكون مناسباً للملكة الجديدة، لأن مرافقي العروس الحلبية سيكتبون تقريراً إلى مولاها بعد عودتهم^(٥).

وتستمر المراسلات بين الوفد وماري إلى ما قبل وصول الوفد مع العروس إلى ماري نفسها، وكما أشرنا آنفاً، فإن هذا الزواج كان ناجحاً، فمن بين وثائق أرشيف ماري، هناك مجموعة من الرسائل تبادلها الزوجان أثناء غياب الملك عن عاصمة ملكه. ويبدو من خلال هذه الرسائل مدى الألفة والمودة التي كانت تجمع بينهما. فالملكة شيبيتو كانت تصف نفسها بأنها خادمة مولاها، ففي أحد الرسائل القصيرة التي أرسلتها إلى زوجها نقرأ كل شيء في ماري على ما يرام "المعابد والقصور"، وفي رسالة أخرى تتمنى لزوجها النجاح الباهر في الحرب، ولاسيما أن يعود إليها سالماً معافى "مسرور القلب"، وبانتظار ذلك ترسل له معطفاً وثوباً تؤكد أنهما من صنع يديها، وتضيف "رجاء أخير أن يضعهما على كتفيه"، وفي بطاقة أخرى تقول له: "إلى مولاي، هكذا (تقول) شيبيتو خادمتك"، ونشير هنا إلى أنه كان للملكة شيبيتو خاتماً خاصاً بها نقش عليه "شيبيتو، بنت ياريم-ليم، زوجة زمري ليم"^(٦).

إن علاقة المصاهرة هذه مع يحماض لم تدف زمري-ليم كثيراً، فعندما تعرضت لماري لهجوم ملك بابل حمورابي في العامين (١٧٦١-١٧٥٩ ق. م.)، مما أدى إلى دمارها

نهائياً، فإن ملك يحاض لم يهب لمساعدة أو نجدة صهره وتركه لمصيره. وهنا لا نستطيع أن نقدم تفسيراً مقنعاً لتقاعس ملك يحاض عن مد يد العون، ولكن ربما رغب هذا الملك بعدم الدخول في مواجهة مع حمورابي البابلي الذي كان في هذا الوقت قد تمكن من فرض سيطرته على معظم بلاد الرافدين وبدأ بالتطلع إلى خارجها، وباعتقادنا لو وقفت يحاض إلى جانب ماري لتمكنا معاً من الوقوف في وجه قوة حمورابي.

إذاً ما حدث في حالة ماري يتناقض مع ما حدث في حالة قطنا، إذ هنا نستطيع القول: إن الزواج لم يكن يشكل ضماناً لقيام علاقة ودية بين دولتين مختلفتين في المصالح.

العلاقات الأسرية بين البلاطين الحوري - الميتاني والمصري:

من المعلوم أن مطلع القرن السادس عشر ق. م. شهد بداية توسع الحوريين الميتانيين من شمال بلاد الرافدين نحو شمال سورية ووسطها، وصولاً إلى شواطئ بحر المتوسط غرباً. وبعد ذلك بقليل (بحدود العام ١٥٧٠ ق. م.) تخلّصت مصر من حكم الهكسوس، وبدأت سياسة توسعية خارجية نشيطة قادها ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، استهدفت فرض النفوذ المصري على سورية، منعاً لأي تهديد مستقبلي تتعرض له مصر يكون مصيره هنا.

وانطلاقاً من ذلك، كان لا بدّ من وقوع صدام بين هاتين القوتين الكبيرتين، وبدأت أول المواجهات في عهد الملك المصري تحوتمس الأول (١٥٢٨-١٥١٠ ق. م.)، الذي وصل في حملة العام السادس من حكمه إلى كركميش على الفرات، وانتصر هنا على قوات عدوة كانت تتأهب لمواجهة المصريين، وكرّر هذه الحملة تحوتمس الثالث (١٤٦٨-١٤٣٦ ق. م.)، الذي اجتاز نهر الفرات ملاحقاً القوات الميتانية. ويبدو أن الملك الميتاني فضّل عدم الدخول في مواجهة مباشرة مع القوات المصرية، فانسحب بقواته إلى عمق بلاده، حارماً بذلك تحوتمس الثالث من تحقيق نصر كان سيفتخر به

كثيراً. ولكن العلاقة بين الدولتين المتنافستين بدأت بالتحول إلى علاقة تحالف مع تصاعد القوة الحثية التي أصبحت تشكل خطراً يهدّد مصالحهما معاً، فنراه يسارعان في عهد الملك تحوتمس الرابع (١٤١٣-١٤٠٥ ق. م.)، وأرتاداما الميتاني، لعقد اتفاق سلام بينهما توجّ بزواج جمع بين الملك المصري وابنة الملك الميتاني، والتي أُعْطِيَتْ عند وصولها إلى مصر اسماً مصرياً هو "موت موي"، والتي ربما باتت والدّة فرعون مصر المقبل امنحوتب الثالث. وخبر هذا الزواج يرد في الرسالة EA29، من رسائل العمارة^(٧).

ولم تقتصر علاقة المصاهرة بين هذين البيتين الملكيين على هذا الزواج، فامنحوتب الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ ق. م.)، تزوج من عدة أميرات ميتانيات كانت أولهما الأميرة غيلوخيا ابنة ملك شاتارنا وشقيقة الملك المقبل توشراتا، وكثيراً ما يتردّد اسم هذه الأميرة الميتانية في الرسائل التي بعثها الملك توشراتا إلى امنحوتب الثالث أثناء مفاوضات زواج الملك المصري من الأميرة تادوخيا بنت توشراتا. وأخبار هذه المفاوضات نقرأها في عدد من رسائل العمارة منها الرسائل ذات الأرقام (١٩ - ٢٢-٢٤) وغيرها.

وهنا سنحاول أن نعرض لمقتطفات من الرسائل التي يرد فيها خبر العلاقات الأسرية بين البيتين الملكيين.

الرسائل الأولى التي تبادلها الملك الميتاني توشراتا مع الملك المصري امنحوتب الثالث، تبدأ كالعادة بطمأنّة الملك المصري عن أحواله خاصة وأحوال بلاده عامة. وبنفس الوقت يسأل الملك المصري عن أحوال شقيقته غيلوخيا: "(إلى) نيموريا ملك مصر أخي، أقول: هكذا يقول توشراتا ملك ميتاني أخوك: فلنكن بخير مع غيلوخينا شقيقتي. فلنكن بخير في بيتك، مع نسائك، مع أبنائك، مع قادتك مع فرقك العسكرية، مع خيولك، مع عرباتك، فيلكن كل شيء جيد في بلادك...، انظر عربة واحدة

حصانين، غلام واحد، فتاة واحدة، من جزية بلاد خاتي أرسل إليك...، وكهدية لغيلو خيبا شقيقتي: عقد واحد من الذهب، حلق ذهبي، "ماشو" واحد من الذهب، قارورة واحدة من الحجر، زيت ممتاز، أنا أرسلت" EA17.

وأما فيما يتعلق بابنة توشراتا الأميرة تادو خيبا، فقد بدأ الأمر عندما أرسل امنحوتب الثالث إلى توشراتا يطلب منه أن يُرسل إليه ابنته ليتخذها زوجة له. ويرد أخبار هذا الطلب في رسالة ردّ بها توشراتا على امنحوتب الثالث، ويطلب فيها مقابل شقيقته كمية كبيرة من الذهب "عندما أرسل أخي مبعوثه (رسوله) ماني، قال أخي "أرسل لي ابنتك من أجل أن (تكون) زوجتي. من أجل أن تكون سيدة مصر.

"أنا لم أكرر قلب أخي، ولكن قلت (كما يقول الأصدقاء): "أنا سأنفذ ذلك"، وهي، التي طلبها أخي، أنا أريتها لماني وهو تفحصها، وعندما رآها، امتدحها كثيراً، دع عشتار وأمون يجعلان منها كما يرغب قلب أخي...، وأنا أطلب من أخي كمية كبيرة من الذهب وأقول: "أكثر من أبي (وهنا إشارة إلى غيلوخيبا) فليخصص لي أخي وليرسل لي" (EA19)، وفي مكان آخر من نفس الرسالة نرى إصرار توشراتا على الذهب "وأنا قلت أيضاً ما يلي: الذهب الذي يرسله أخي، فليرسله كثمن (مهر) للعروس وهكذا فليرسل أخي الذهب بكميات كبيرة جداً، بدون وزن فليكن ما يرسله أخي، وليرسل أخي ذهباً من أجل (تادو خيبا) أكثر مما لأبي (من أجل غيلوخيبا) لأنه في بلاد أخي هو (أي الذهب) كثير (كالرمل)" EA19.

ويبدو أن توشراتا لم يكن يرغب بإنهاء هذه المفاوضات بسرعة وقيل أن يطمئن إلى وصول الذهب إليه، لذلك نراه يخبر امنحوتب الثالث في رسالة أخرى أنه سوف يرسل إليه رسول مع الرسول الذي كان الملك امنحوتب الثالث قد أرسله إلى توشراتا "خلال ستة أشهر سأرسل غيلبا رسولي، وماني رسول أخي. أنا سأعطي زوجة لأخي وعندما سيرهاها أخي فإنه سيكون مسروراً جداً، وسيجد أنها توافق رغبات قلبه"

EA20. وبعد انتهاء مفاوضات الزواج الطويلة وصلت تادو خيبا إلى مصر محملة بهدايا ثمينة جداً نجد تفاصيلها في الرسالتين 22-24.

ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، فما إن وصلت الأميرة الميثانية إلى مصر، حتى توفي الملك امنحوتب الثالث، لذلك نرى توشراتا يسارع إلى إرسال رسالة تعزية إلى أرملته الملكة تي، ويعتبر بنفس الوقت ابنته زوجة لخليفة امنحوتب الثالث ابنه الملك امنحوتب الرابع.

ونشير أخيراً إلى أنه لم تقم أي حرب بين الدولتين الميثانية والمصرية بعد تحوتمس الرابع وإن كنا على قناعة بأن السبب في ذلك لا يعود إلى علاقة المصاهرة التي ربطت بين البيتين الملكيين، بقدر ما كان السبب وراء ذلك يعود إلى أسباب سياسية خارجية وأخرى داخلية، فتعاضم القوة الحثية في آسية الصغرى وتهددها للدولة الميثانية في عقر دارها، وما نتج عن ذلك من ضعف أصاب الميثانيين من ناحية، وللوجود المصري في سورية من ناحية أخرى، إلى جانب انشغال امنحوتب الرابع أخفائون بثورته الدينية، كل ذلك أدى إلى توقف الحرب بين الطرفين وعقد السلام بينهما، وإن كان من دور لهذه المصاهرة بين الطرفين، فإن هذا الدور انحصر في تعزيز هذا السلام.

العلاقات بين البلاطين الكاشي والمصري:

لا توجد دلائل على وجود أي شكل من أشكال الصراع أو المنافسة بين الدولة الكاشية في بابل ومصر الفرعونية^(٨). ويبدو أن السبب في ذلك يعود لعدم وجود أي مبادرة من قبل الملوك الكاشيين لمدّ سيطرتهم إلى مناطق النفوذ المصري في سورية. فالدارس للتاريخ الكاشي على امتداد قرونه الأربعة تقريباً لا يرى أي محاولة من هؤلاء الملوك لخوض أي حرب في المنطقة السورية، باستثناء ما يذكر من أن الملك قدشمان خاري (نحو ١٤١٠-١٣٨٦ ق.م.)، قد قضى على السوريين^(٩)، "من مشوق

الشمس إلى مغربها". وربما كان لذلك أسبابه والتي منها أن الكاشيين في بابل كانوا بالأصل يشكلون طبقة حاكمة أجنبية، وبالتالي كان همهم الأول الحفاظ على حكمهم في بابل نفسها، والأمر الثاني الذي ربما منع الكاشيين من التقدم في سورية، هو أن الطريق الرئيسة المؤدية من بلاد الرافدين نحو سورية كانت تخضع لطرق معادية لهم. فمن المعلوم أن هذه الطريق كانت تنطلق من بابل شمالاً نحو إيمار (مسكنة)، ومن هناك تعبر شمال سورية عرضاً ومن ثم تتحدر جنوباً نحو وسط وجنوب سورية^(١٠). وكما نعلم، فإن منطقة شمال بلاد الرافدين والشمال السوري كانت في هذا الوقت خاضعة للسيطرة الحورية الميتانية، أي أن طريق الفاتحين من بلاد الرافدين نحو سورية، كانت خاضعة لقوة معادية للكاشيين، وبالتالي فإن التدخل في الشؤون السورية كان يعني الدخول في حرب مع أقوى قوتين كانتا موجودتين في منطقة المشرق العربي القديم في ذلك الوقت، أي القوة المصرية والقوة الحورية الميتانية، وهذا ما كانت بابل الكاشية عاجزة عن فعله. وخلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م. حلّ الحثيون محل الحوريين الميتانيين وبالتالي بقيت هذه المنطقة مغلقة أمام الكاشيين.

إن ما ذكرناه آنفاً من عدم وجود منافسة مصرية كاشية على النفوذ في سورية، دفع بالعلاقة بين البلدين لتأخذ منحى سلمياً وإن أول لقاء جمع بين ملكين من الدولتين المصرية والكاشية، كان ذلك اللقاء الذي جمع بين الملك الكاشي كارا إنداش والمصري تحوتمس الثالث أثناء حملة هذا الأخير ضد الحوريين الميتانيين التي أشونا إليها آنفاً، وأما أول مصاهرة جمعت بين البيتين المالكن فكانت تلك التي جمعت بين ابنة كوريجا لزو الأول وامنحوتب الثالث، ويبدو أن الملك الكاشي اعتبر ذلك نجاحاً سياسياً كبيراً، ولكن الواقع ربما كان غير ذلك، فابنة الملك الكاشي تحولت إلى مجرد امرأة في حريم مصر.

وقد تغيرت هيئة هذه الأميرة إلى درجة لم يتمكن معها رسل شقيقها قدا شمان انليل الأول من التعرف عليها عندما زاروها في مصر، الأمر الذي سنتعرض له فيما بعد.

لقد حفظ أرشيف العمارنة مجموعة كبيرة من الرسائل أرسلها الملكان قداشمان أنليل الأول وبورنا بورياش الثالث إلى كل من امنحوتب الثالث وامنحوتب الرابع أخناتون، ومعظم هذه الرسائل يتعلق بطلب الملكين الكاشيين الذهب من مصر إلى جانب أمور تتعلق بالزواج بين البيتين الملكييين.

فقداشمان أنليل الأول كان قد أرسل ابنته إلى مصر كزوجة لامنحوتب الثالث، وبالمقابل فإنه طلب من ملك مصر أن يرسل إليه أميرة مصرية ليتزوجها، ولكن ملك مصر ردّ بأنه لم يسبق أن تزوجت أميرة مصرية من أجنبي، وهنا سنذكر بعض التفاصيل المتعلقة بهذه المسألة، كما تعكسها لنا رسائل العمارنة.

في الرسالة الثالثة من رسائل العمارنة نقرأ ما يلي: "فيما يتعلق بالفتاة، ابنتي، وبشأن الزواج الذي كتبت عنه، الفتاة كبرت، وهي مناسبة للزواج. أرسل (من أجلها) وليأخذوها (إلى مصر) EA3.

ولكن عندما طلب قداشمان أنليل الأول أميرة مصرية للزواج، كان رد امنحوتب الثالث الاستغراب وربما الاستنكار "انظر... عندما أنت أخي، عندما لا تسمح لابنتك بالزواج بهذا الشكل أنت تكتب لي قائلاً: منذ القدم لم تتزوج ابنة ملك مصر لأحد" (أنا أجيب): لماذا تقول ذلك؟ أنت الملك وأنت تستطيع أن تتصرف كما يحلو لك. إذا أنت أعطيت (الابنة) من يقول أي شيء (أي من يستطيع أن يقول أي شيء ضد ذلك)، بما أنك أنت كتبت لي هذا الجواب، أنا أكتب لأخي ما لي: توجد بنات كبيرات ونساء جميلات (في مصر).

"إذا كانت هناك أي امرأة جميلة (برأيك) أرسلها، من سيقول "هي ليست ابنة ملك مصر". ولكن أنت لم ترسل ولا واحدة، ألم تبحث أنت عن الأخوة والصداقة عندما تكتب بشأن الزواج حتى نكون أقرب إلى بعضنا البعض؟ والآن أنا من أجل الهدف من أجل الأخوة والصداقة، حتى نكون قريبين من بعضنا البعض كتبت لك عن هذا

الزواج، لماذا لم يرسل لي أخي زوجة؟ حقاً إذا أنت لم ترسل لي زوجة، هل من المفروض علي عند ذلك، مثلك، أن لا أرسل زوجة لك؟ كلا ابنتي هنا، وأنا لن أمنعها عنك" EA4.

تبيّن لنا هذه الرسالة مدى الأهمية التي كان يعلقها الملك الكاشي على زواجه من أي امرأة مصرية، المهم أن تكون رسالة من قبل الملك المصري. ولا يهم أكانت أميرة أم لا، فمن سيعلم في بابل أن هذه المرأة هي أميرة أم لا؟ المهم أن تكون جميلة. ولكن مجرد إرسال مثل هذه المرأة من قبل الملك المصري، كان سيعزز من مكانة الملك البابلي في نظر شعبه من جهة وسيرفع من مكانته أمام حكام الدول الأخرى. وعلى العكس من ذلك، فقد اعتبر امنحوتب الثالث ذلك مهيناً بالنسبة للمصريين عامة وللأسرة المالكة خاصة والتي كانت تضع نفسها فوق كل الأسر المالكة الأخرى في منطقة المشرق العربي القديم.

وفي نفس الرسالة نقرأ مطالبة قداشمان انليل الأول بإرسال الذهب إليه من أجل إتمام مشاريعه العمرانية "وفيما يخص الذهب، الذهب بكثرة، فقط بكثرة وبقدر ما يمكن، والذي كتبت لك من قبل أن يصلك مبعوثك إلي، الآن بسرعة، في هذا الفصل في شهر تموز أو آب، أرسله، من أجل أن أتمكن من إنهاء العمل الذي أنجزه". وفي موضع آخر من هذه الرسالة يهدد الملك الكاشي ملك مصر بأنه إن لم يرسل الذهب في الوقت الذي يريده فإنه لن يقبله منه ولن يعطيه ابنته كزوجة له... وإذا لم ترسل الذهب في شهر تموز أو آب ولم ينجز المشروع الذي بدأت بتنفيذه، فلماذا ترسل شيئاً بعد ذلك؟ لأنني أكون قد انتهيت من إنجاز هذا المشروع الذي بدأت بتنفيذه؟ ولو أرسلت بعد ذلك ٣٠٠٠ وزنة من الذهب سأرفض استلامها وأعيدها إليك، ولن أعطيك ابنتي زوجة لك" وكنا قد أشرنا إلى شقيقة الملك الكاشي التي كانت قد أرسلت كزوجة إلى امنحوتب الثالث، ولكن يبدو أن هذه الأميرة الكاشية تحولت إلى مجرد رقم في حريم هذا الملك الضخم. وقد دارت نقاشات حول مصيرها في المراسلات التي جرت بين هذين

الملكين، فالملك الكاشي يشتكي من أن رسله لم يتمكنوا من التعرف على شقيقة سيدهم، إلا أن الملك المصري يتهم الملك الكاشي بأنه لم يرسل المبعوثين الذين كان بإمكانهم التعرف إليها من خلال معرفتهم المسبقة بها، وبأن رسله هؤلاء ليسوا على قدر المسؤولية التي كلفهم بها الملك. وهنا مقطع من رد أمنحوتب الثالث على احتجاج قداشمان انليل الأول "قداشمان انليل ملك كاردونياش أخي أقول: حقاً أنا استلمت رسالتك التي كتبتها لي بشأنها وتحديداً: أنت ترغب بالزواج من ابنتي رغم أن أختي التي أعطاك إياها والدي، توجد عندك، ولكن لم يرها أحد، أحية أم ماتت، هذه كلمتك التي كتبتها على لوحك. ولكن متى ترسل لي رجلاً من حاشيتك، يعرف أختك، ويستطيع التكلم معها ويجدد التعرف بها، وأنت كتبت لي: أنت قلت لمبعوثي، عندما وقفت كل نسائك معاً أمامك: انظر إلى سيدتك التي تقف أمامك، إلا أن رسلي لم يعرفوها، هل من الممكن أن تكون أختي أصبحت هكذا؟ لماذا لا ترسل أنت رجلاً من البلاط، كان من الممكن أن يقدم تقريراً موثقاً و(يوصل إليك) تحية من أختك التي هي بصحة جيدة، وتأمراً بأن يأتي وينظر إلى بيتها وإلى علاقتها مع الملك" EA1.

العلاقة بين البلاطين الحثي والمصري:

لقد كانت سورية منطقة الالتقاء بين المصريين والحثيين، فكلتا الدولتين كانت ترغب في فرض هيمنتها عليها لما كان لها من مكانة استراتيجية في اقتصاديات العالم القديم. وقد بدأ الحثيون محاولاتهم لفرض سيطرتهم على شمال سورية في عهد مملكتهم القديمة، وخاض كلا من خاتوشيلي الأول ومورشيلي الأول حروباً كثيرة في هذه المنطقة، في الوقت الذي كانت فيه مصر خاضعة لحكم الهكسوس. ولكن الحثيين فشلوا في استغلال النصر الذي حققوه في عهد ملكهم مورشيلي الأول في حملته عام ١٥٩٥ ق.م. والتي كان من نتائجها إضعاف مملكة يمحاض سيدة شمال سورية إلى حد بعيد، وذلك بسبب الصراع على العرش في العاصمة خاتوشا، هذا الصراع الذي

نشب بين أفراد البيت المالك عقب اغتيال مورشيلي الأول، وعاد الحثيون لينكمشوا داخل حدودهم في آسية الصغرى^(١١).

ونعلم كيف سارت الأمور بعد ذلك سواء بالنسبة للدولة الحثية أو بالنسبة لشمسورية، فالحثيون وخلال القرنين التاليين كان مهمهم إعادة بناء دولتهم، في حين أن الشمال السوري خضع أولاً للميتانيين، ومن ثم دار صراع عنيف بين هؤلاء الميتانيين والمصريين في سبيل فرض السيادة على سورية. وكما قلنا آنفاً فإن الصراع توقف في عهد تحوتمس الرابع (١٤١٣-٤٠٥ ق.م.)، وذلك عندما بدأ يلوح بالأفق مجدداً خطر الحثيين في عهد دولتهم الحديثة. ومما يؤكد أن الحلف بين الطرفين كان في جانب منه موجه ضد الحثيين، إن الملك توشراتا أرسل إلى امنحوتب الثالث هدية، هي جزء من الغنائم التي حصل عليها من حروبه مع الملك الحثي شوبيلوليوما (١٣٨٠-٣٤٠ ق.م.)، ولكن رغم هذه النكسة التي تعرضت لها مشاريع الملك الحثي، إلا أنه لم ييأس وتابع عملياته الحربية في سورية وضد الميتانيين إلى أن تمكن من إيجاد مواطن له هنا، مستغلاً عدم تحرك امنحوتب الثالث نحو سورية^(١٢).

ويبدو أن العلاقة بين المصريين والحثيين لم تصل في هذه المرحلة إلى حد الاصطدام المسلح، وهذا ما نستنتجه على الأقل من رسالتين من رسائل العمارنة، وجههما شوبيلوليوما وابنه زيكار إلى امنحوتب الرابع.

فشوبيلوليوما كتب ما يلي: "الآن بعد أن جلس أخي على عرش أبيه، وبما أنه أنا وأبوك تبادلنا الهدايا، كذلك أنت وأنا سنكون الآن أصدقاء مخلصين... انظر: تمثالين ذهبيين، وليكن أحدهما واقفاً والآخر جالساً، وتمثالين لامرأتين من الفضة وقطعة كبيرة من اللازورد" فليرسل لي أخي "EA41".

أما زيكار فقد أرسل إلى امنحوتب الرابع أخناتون، مخاطباً إياه بصيغة والدي وسيدي. وصيغة التخاطب هذه كانت متداولة بين حكام الدول التي تقف على قدم المساواة،

وعندما يكون أحد الملكين أصغر من الآخر: "فليكن سيدي، أبي في كل شيء بخير متى جاء رسلك إلى بلاد خاتي آخر مرة؟... وأنا أريد ذهباً، هكذا أبي أرسل ذهباً، وكل ما ترغب به أنت أبي، سيدي، اكتبه لي وأنا أرسله لك" EA44.

بعد موت امنحوتب الرابع أخناتون حاولت مصر العودة إلى سورية ولكن الأمور لم تستقم لهم فيها إلا مع بداية حكم الأسرة التاسعة عشرة، وبعد الحروب الطويلة التي خاضها الملوك المصريون الأول من هذه الأسرة في سورية: حورمحب وسي تي الأول ورعمسيس الثاني^(١٣).

وأما علاقة المصاهرة بين البيتين المالكين، فلدينا أخبار محاولتين لإقامة مثل هذه العلاقة. الأولى لم يكتب لها النجاح والثانية تمت وكرست لها نصوص كثيرة في مصر.

الحالة الأولى: وهي التي تستدعي انتباه الباحثين أولاً من حيث طبيعتها وثانياً من حيث صحتها، فبعض الباحثين يشكك في وجود المحاولة أصلاً هنا ولا بد من الإشارة إلى أن أخبار هذه المحاولة ترد في الوثائق الحثية فقط، في حين لا يرد أي ذكر لها في أي من الكتابات المصرية الكثيرة، وعلى ذلك يشكك الكثير من الباحثين (وخصوصاً المصريين منهم) في صحة الرواية الحثية.

والآن، ما هي المعلومات التي تقدمها لنا المصادر الحثية عن هذا الموضوع.

ملخص الأمر، أنه بعد وفاة الملك المصري توت عنخ آمون أرسلت أرملة أنخس ابنسا آمون إلى الملك الحثي شوبيلوليوما تطلب منه أن يرسل لها أحد أولاده لتتزوج به وليكون ملكاً على مصر، لأنها لا ترغب بالزواج من أحد خدماها (أي من المصريين). فتشكك الملك من هذا الطلب وأرسل ليتأكد من الموضوع.

فأكدته الأرملة المصرية عاتبة عليه تشكيكه في نواياها، وأخيراً أرسل الملك الحثي أحد أبنائه إلى مصر. ولكن هذا الأخير قُتل قبل وصوله إليها مما أثار حزناً شديداً لدى والده وجند الحرب بين الدولتين.

وكما أشرنا آنفاً، فإن أخبار هذه المحاولة تردنا من المصادر الحثية فقط، وأهم هذه المصادر هي: نص الرسالتين اللتين أرسلتها الملكة المصرية أنخس ابنا أمون الموجودة في أرشيف العاصمة الحثية خاتوشا...

كما أن أخبار الرسالتين اللتين أرسلتهما هذه الملكة ورد ذكرهما في ما يسمى "أعمال شوبيلوليوما" والتي تنسب إلى ابنه مورشيلي الثاني، وأيضاً في نص "الصلاة في زمن الوباء" والعائدة لعهد هذا الملك^(١٤).

وحسب نص "أعمال شوبيلوليوما"، فإن الملك الحثي وأثناء حروبه في وسط سورية تلقى رسالة من ملكة مصر التي يسميها النص داخاموناوس كتب فيها ما يلي: "زوجي مات، ولا يوجد عندي ولد، ولكن عندك وكما يقولون أولاد كثير، إذا كان ممكناً أن تعطيني واحداً من أبنائك ليصبح زوجي. أنا أبداً لن أختار خادمي ولن أجعل منه زوجاً لي... أنا أخشى مثل هذا العار". طبعاً شوبيلوليوما استغرب هذا الطلب الذي لم يسمع بمثله في حياته، فدعا كبار مستشاريه الاجتماع للنظر في هذا الطلب، وفي نهاية الاجتماع تقرر إرسال أحد كبار الموظفين "مدير القصر" إلى مصر ليستجلي حقيقة الأمر وليتأكد من أن المصريين لا يقدحونه، بحيث يسترجعون ابنه إلى مصر ليقتلوه، وبعد عدة أشهر، عاد "مدير القصر" إلى مصر ومعه مبعوث مصري هو السفير خاني حاملاً رسالة أخرى إلى شوبيلوليوما تؤكد فيها طلبها السابق، وأنها لا تخدع الملك الحثي وأنها حقيقة لا تملك أولاداً من زوجها المتوفى، "لماذا تقول أنت هم يقدحونني في هذا الأمر؟ لو كنت أملك ولداً هل كنت كتبت لك عن عار يخصني أنا ويخص بلدي إلى بلد غريب. أنت لن تثق بي حتى أنك تحدثت لي عن ذلك. ذاك الذي

كان زوجي مات. وأنا لا أملك ابناً، أنا لن آخذ خادمي أبداً ولن أجعل منه زوجاً لي. أنا لم أكتب إلى أي بلد آخر. فقط لك أنا كتبت. هكذا يقولون: أبناؤك عددهم كبير اعطني واحداً منهم هو سيكون زوجي، وفي مصر سيكون ملكاً، بعد ذلك يرد في حديث شوبيلوليوما مع المبعوث المصري والذي يبرّر من خلاله شكوكه في نوايا المصريين متخذاً من الحرب بين الدولتين سبباً لذلك "أنا شخصياً كنت صديقكم ولكن أنتم فجأة ألحقتم بي الأذى. أنت (المصريون) {أنيتم} وهاجتم رجل كيتري (قادش) الذي أنا {حررتة (?)}. من ملك أرض حوري، عندما سمعت أنا عن ذلك، أصبحت شريراً، وأرسلت فرقي إلى الأمام مع العربات والقادة. وهكذا هم ذهبوا وهاجموا أراضيكم في بلاد عمقي. وعندما هاجموا بلاد عمقي والتي هي بلادكم، أنتم على ما يبدو خفتم (ولذلك) قررتم أن تطلبوا مني ابني، وبهذا الشكل كان سيصبح رهينة. ولكنكم لم تكونوا لتجعلوا منه أنتم (ملكاً)". ومن ثم يردّ المبعوث المصري على الملك الحثي قائلاً: "آه ياسيدي... لو أننا نملك (ابناً للملك) هل كان من الممكن أن نأتي إلى بلد غريب؟ هل كان من الممكن أن نطلب سيّداً لنا؟ تب خورورياس (توت عنخ آمون) الذي كان سيدنا مات، ولا يوجد عنده ولد. زوجة سيدنا وحيدة. نحن نبحت عن ابن سيدنا (الملك الحثي) من أجل جعله ملكاً في مصر. ومن أجل المرأة، سيدتنا، نحن نبحت عنه كزوج لها. إضافة إلى ذلك (خذ بعين الاعتبار) نحن لم نتوجه إلى أي بلد آخر. فقط جئنا إلى هنا والآن، يا سيدنا اعطنا ابنك".

وتتابع "الأعمال" فتقول إن الملك الحثي طلب لوجاً قديماً كان مكتوباً أن الإله تيشوب إله العاصفة عند الحثيين أخذ في غابر الأيام أناس كم كوروستاما وهم أبناء خاتي ونقلهم إلى مصر وجعل منهم مصريين. وربما يشير هذا إلى علاقات قديمة سابقة لعهد شوبيلوليوما كانت قائمة بين المصريين والحثيين، هذا إذا لم نأخذ بما يطرحه بعض الباحثين من أن الأسر التي حكمت مصر كانت في أصولها غير مصرية، هذا

الطرح الذي لا يجد أي سند علمي حقيقي يدعمه. وفي ختام نص الأعمال يؤكد الملك الحثي على رغبته في أن تستمر الصداقة بين مصر وخاتي قائمة^(١٥).

إلى هنا ينتهي نص "أعمال شوبيلوليوما" كما دُون في عهد ابنه مورشيلي الثاني، دون الإشارة إلى أن الملك الحثي قد أرسل ابنه إلى مصر. ولكن الوثائق الأخرى التي أشرنا إليها آنفاً تشير إلى مقتل الأمير الحثي من قبل أناس مصريين.

ولكن مجمل هذه النصوص تتضمن إشكالية تتعلق بالوقت الذي مات فيه توت عنخ آمون والزمن الذي وصلت فيه الرسالة إلى مصر ومن ثم سفر المبعوث الحثي وعودته مع المبعوث المصري. فمن المعلوم أن توت عنخ آمون توفي في فصل الربيع.

وطبقاً (للأعمال)، فإن الرسول الحثي عاد إلى الملك الحثي مع المبعوث المصري الذي أحضر الرسالة الثانية أيضاً في فصل الربيع ولكن من المؤكد أنه ليس نفس الفصل الذي توفي فيه توت عنخ آمون وإنما الربيع التالي. وبالتالي يمكن الافتراض أن أرملة كانت تعتبر نفسها وخلال هذا العام ملكة مصر الشرعية. وبما أنه كان هناك مبعوث مصري شارك في مفاوضات الزواج هذه، فإنه يمكن الافتراض أن هذه المفاوضات كانت ذات طابع رسمي.

ولكن كيف نظر كبار القادة المصريين إلى هذه المفاوضات وعلى رأسهم إيا (آي) (والذي كان يصور في مقبرة توت عنخ آمون على أنه فرعون مصر الجديد على اعتبار أنه هو الذي أشرف على عملية دفن الفرعون المتوفى، هذه العملية التي جرت بعد سبعين يوماً من وفاته).

بالتأكيد أن هؤلاء القادة لم يكونوا راضين عن هذه المفاوضات وربما كان أي وقائد الجيش حور محب وراء عملية اغتيال الأمير الحثي قبل وصوله إلى مصر، لما كان

يعنيه وصوله إليها بالنسبة إليهما من فقدانهما لكل من تطلعاتهما في الوصول إلى العرش المصري بعد وفاة الملك الشاب توت عنخ آمون .

لقد وضعت عملية اغتيال الأمير الحثي قبل وصوله إلى مصر حداً لفترة من السلم سادت العلاقات بين الدولتين المصرية والحثية، إذ سرعان ما تجددت المعارك بينهما مع تقدم قوات الحثي شوبيلوليوما في وسط سورية، وكانت ذروة الصدام بين الدولتين معركة قادش بحدود العام ١٢٨٥ ق. م. وبما أن هذه المعركة لم تنته إلى نتيجة حاسمة، وبسبب تعاظم القوة الآشورية التي اعتبرها الطرفان تهديداً لمصالحهما في سورية، وبسبب الأوضاع الداخلية غير المستقرة في الدولة الحثية، بعد أن عزل خاتوشيلي الثالث، ابن أخيه أورخي تيشوب عن العرش الحثي وجلس مكانه، وأخيراً بداية ظهور ما يسمى في التاريخ شعوب البحر التي أصبحت خطراً يهدد الدولتين المصرية والحثية، كل هذه الأسباب جعلت الدولتين تتجهان لعقد اتفاق سلام بينهما عام ١٢٧٠ ق. م. ودعم هذا الاتفاق بزواج ابنة الملك الحثي خاتوشيلي الثالث من ملك مصر رمسيس الثاني^(١٦)، وقد دُوِّنت أخبار هذا الزواج على الكثير من الآثار المصرية في الكرنك والفاننتين (جزيرة الفيلة)، وأبو سمبل وغيرها. كما وعثر على عدد كبير من الرسائل لتتعرف على المفاوضات الطويلة التي جرت بين البيتين المالكين قبل إتمام هذا الزواج.

جرى هذا الزواج في العام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ ق. م.) وبعد أن احتقل بعيده الثلاثين (خيب سد)^(١٧)، ومن الغريب أن المراسلات التي جرت بشأن هذا الزواج كانت بين رمسيس الثاني والملكة الحثية بودو خيبا زوجة خاتوشيلي الثالث. ومن المعلوم أنه كانت لهذه الملكة مكانة عظيمة عند زوجها، هيأتها لأن تلعب دوراً في شؤون المملكة تجاوز الأدوار العادية ووصل إلى تدخلها في بعض القضايا السياسية الهامة.

ومن أمثلة الرسائل التي تبادلها الطرفان بهذا الشأن، ما كتبه رعمسيس الثاني إلى بودو خيبا نقطف ما يلي: "انظري، الملك العظيم، ملك خاتي، أخي كتب إلي قائلًا: "قلّيات أناس من أجل سكب زيت جيد وممتاز على رأس ابنتي ولتنقل (ولتأخذ) إلى بيت الملك الكبير، ملك مصر" (١٨).

وتستوقفنا هذه الرسالة عند نقطتين وردتا فيها: الأولى ما يذكره رعمسيس الثاني من أن خاتوشيلي الثالث هو الذي عرض إعطاء ابنته كزوجة للملك المصري. وهذا أمر غير مستبعد، فكما ذكرنا آنفًا، فإن مشاكل خاتوشيلي الثالث، سواء الداخلية أو الخارجية، كانت أصعب من مشاكل رعمسيس الثاني، الذي لم يكن عنده مشاكل حقيقية، وبالتالي فإن الملك الحثي كان هو الأكثر رغبة في تمكين أواصر الصداقة مع المصريين. والأمر الثاني يتعلّق بعملية سكب الزيت. ففي عقود زواج الملوك المصريين السابقة. سواء من الأميرات الميتانيات أو الكاشيات، لم نسمع بممارسة مثل هذا الطقس إلا عندما جرت مفاوضات بين الملك المصري امنحوتب الثالث مع ملك أرتاقا في أسية الصغرى بشأن زواج الأول من ابنته. فامنحوتب يذكر في رسالته أنه أرسل رسوله إليه لينظر إلى الفتاة التي سترسل إلى مصر كزوجة له، وأنه "سيسكب الزيت على رأسها" (١٩). فهل كانت هذه العادة موجودة في أسية الصغرى دون غيرها من المناطق؟.

ونحن نعلم أن المصريين كانوا يقومون بسكب الزيت على رؤوس الحكام الذي يثبتونهم في مناصبهم في سورية، حيث كانت تعتبر هذه العملية بمثابة اعتراف من الملك المصري بالحكم الجديد أو الذي ثبت في منصبه. ففي رسالة أدونيراري حاكم نوخاتشي إلى امنحوتب الثالث نقرأ ما يلي: "لقد أجلس والدك والدي على عرش نوخاتشي باسم تاكو وبسكب على رأسه الزيت عند تنويجه EA51.

وفي رسالة أخرى من رعمسيس الثاني إلى بودوخيبا يطمئن الملك المصري نظيره الحثي من أن ابنته سوف تصل بسلام إلى مصر "قولي لأخي ما يلي: فيما يتعلق برسالتك لي: "انظر، العروس أنا أعطي ...، أنا أعطيتها، ومهرها أكبر من مهر بنات ملك بابل وأكبر من مهر بنات ملك (بلاد) زولابي...، أنا أعطيت ابنتي عبداً وقطعان أغنام وخيولاً وأنا سأرسل ابنتي في هذا العام والتي ستحضر العبيد والقطعان والأغنام والخيول إلى بلاد ايا، فليرسل رجلاً لكي يهتم بهم في بلاد ايا". هكذا كتب أخي.

وأنا أجيب بما يلي: "فيما يتعلق بهؤلاء العبيد وقطعان الخيول والماشية والأغنام.. أنا كتبت إلى سيتي حاكم مدينة رمسيس المدينة التي توجد في بلاد أوبي من أجل أن يهتم بهم وهو الذي سيكون مسؤولاً إلى أن تصل العروس إلى مصر".

ولقد كرس رعمسيس الثاني الكثير من النقوش لتخليد زواجه من هذه الأميرة الحثية. وقد وجدت هذه النقوش في أماكن عديدة من مصر، ولكن أهم هذه النقوش هو ذلك الموجود في أبو سمبل. والذي يسمى "مسلة زواج رعمسيس الثاني".

وفيما يلي بعض المقطعات من هذه المسلة:

الأسطر الأولى (٢٥ سطراً) عبارة عن مقدمة طويلة تحتوي على عبارات تقليدية ومديح للملك المصري، ويرد بعد ذلك وصف للعلاقات بين الدولتين ولاسيما الحرب الأخيرة التي دارت بينهما، والأحداث كما ترد هنا لا يمكن الوثوق بها تماماً، إذ أن رعمسيس الثاني يحاول إظهار الرعب الذي أصاب الحثيين، عندما تقدم بجيوشه لمواجهةهم في سورية، فيقول على لسان الملك الحثي "خطب حاكم بلاد خاتي العظيم بجنوده وموظفيه قائلاً: "انظروا بلادنا تعيش في بؤس، وملكننا سوتيتخ^(٢٠) غاضب علينا. السماء لا تعطينا الأمطار. البلاد كلها متحدة تحارب ضدنا. فلنجمع كل ثروتنا ولتكن ابنتي الكبرى على رأسها. (فلتأخذ) الهدايا إلى الإله الصالح ملك مصر العليا والسفلى. أ، سرامع برست بن رع، ابن رع رمسيس مر أي أمون، الذي أعطى

الحياة من أجل أن يعطينا السلام ولنتمكن من الحياة. وأمر (أي الملك الحثي) أن (ينقلوا) ابنته الكبرى ومعها هدايا رائعة مؤلفة من الذهب والفضة والمعادن (بكميات كبيرة) وعبيد وخيول لا حصر لها وخنازير وماعز. لانهاية للأشياء التي جلبوها معهم".

ويبدو أن الشتاء كان قاسياً، ولذلك قلق رعمسيس الثاني على هذا الموكب القادم من آسيا الصغرى إلى مصر عبر سورية، ولذلك فإنه أتجه إلى الآلهة طالباً منها أن تخفف من وطأة المطر والتلج حتى تصل العروس إلى مصر بسلام: "... بعد ذلك قتم هو (أي رعمسيس الثاني) قرباناً لأبيه العظيم سوتبخ وتوجه إليه قائلاً: السماء في يدك والأرض تحت أقدامك، كل ما تأمر به أنت ينفذ. لا تخلق مطراً بارداً وتلجاً حتى يجلبوا إلي تلك الأعجوبة التي خصصتها أنت لي"، وسمع أبوه سوتبخ كل ما قاله. وكانت السماء صافية وحلت أيام صيف في أيام الشتاء... "ومن ثم يذكر رعمسيس الثاني الاحتفالات التي جرت في مصر عند وصول الموكب الحثي"...، عندما وصلت ابنة حاكم بلاد خاتي العظيم، سلاح العربات وكبار موظفي جلالتة، اختلف مع سلاح عربات بلاد خاتي، كانوا جميعاً كجنود مصريين أكلوا وشربوا كأخوة، ولا أحد اختلف مع جاره، السلام والأخوة سادت بينهم".^(٢١).

وقد حظيت هذه الأميرة الحثية بمكانة واحترام كبيرين في البلاط المصري، فكما تذكر النقوش المصرية، فإن رعمسيس الثاني أمر بأن يكون اسمها الزوجة الملكية "ماعت نفرو رع" ومثلت على أحد التماثيل في عاصمة الملك الجديدة بتاينس، ولقد أخذت الاسم المصري: ماعت نفرو رع. ولقد لُقِّبت بلقب الزوجة الملكية، الزوجة العظمى ووضع اسمها داخل خرطوش وتبع ذلك دائماً عبارة -ابنة الحكم العظيم لخيئا.

وقد حصلت هذه الأميرة الحثية على هذا التكريم رغم أصلها الأجنبي بحكم مكانة أبيها ودولته في عالم الشرق القديم. وشهد عصر رعمسيس الثاني زواجه من أميرة

حنية أخرى، حيث عُثِرَ على لوحة من الجرانيت الأسود بمعبد "قفط" ودلّ الجزء الباقي منها على زيارة قام بها الأمراء الآسيويون لمصر يحملون هدايا كثيرة لرعمسيس الثاني مع ابنة ملك خاتي الثانية^(٢٢).

وهنا يستوقفنا أمر هام يتعلق بزواج الأميرات الحنات خارج بلاد خاتي. ففي حالات الزواج التي تمت بين الملوك الحثيين وملوك آخرين غير الملوك المصريين، نلاحظ أن الملك الحثي كان يضع دائماً شرطين في عقد الزواج، أولهما أن تكون الأميرة الحثية هي الزوجة الرئيسة للحاكم الذي أعطيت له، طبعاً مع عدم منع هذا الحاكم من اتخاذ زوجات أخريات، وثانيهما أن يكون العرش من نصيب الولد الناتج عن هذا الزواج. ومثل هذين الشرطين نجدهما في شروط زواج الملك الميتاني شاتا وازا من ابنة الملك شوبيلوليوما^(٢٣). ولكننا لا نرى مثل هذين الشرطين في حالات الزواج من الملوك المصريين.

وقبل أن ننهي الحديث عن الزيجات السياسية بين الدول الكبرى في الألف الثاني ق.م. نتوقف قليلاً عند زواج وطلاق كانت لهما تداعيات كثيرة في المنطقة السورية في القرن الثالث عشر ق.م.

الزواج هو زواج ملك أوجاريت عميشترو الثاني من ابنة ملك أمورو بينيشينا المدعوة رابيتي. ومن خلال مجموعة من الوثائق التي عُثِرَ عليها في أوجاريت، نعلم أنه قد وقع خلاف بين الملك الأوجاريتي وزوجته بسبب إساءة ألحقها الزوجة بالملك، ويبدو أن والدته ملك أوجاريت تدخلت في الموضوع لأن الإساءة ربما لحقت بها أيضاً. وقد حاول ملك أوجاريت تجنب فضيحة تنشب في قصره، فأرسل إلى والدته رسالة يقول فيها: إنه عفى عن "ابنة ملك عمورو" وأرسل رسولاً من قبله إلى ملك عمورو المدعو شاو شجا مووا وهو شقيق ملكة أوجاريت، سبب المشكلة، وأحضر هذا الرسول من هناك نقوداً وملابس، وبالمقابل قام هذا الرسول بسكب الزيت على رأس

بيت-رابيتي كطقس، ربما يشير إلى تثبيت الزواج، إلى هنا تبدو المشكلة وكأنها حُلّت. ولكننا نفاجئ في وثائق أخرى، بأن ملك أوجاريت قام بطرد بيت-رابيتي من القصر ومن أوجاريت بأسرها، مما سبّب مشكلة بين الدولتين الجارتين أوجاريت وأمورو. وكانت من المشاكل المعلقة التي يجب أن تجد لها حلاً مسألة حقوق ملكية بيت-رابيتي وأولادها.

وعند عرض المسألة برمتها على تودخاليا الرابع ملك بلاد خاتي وسيد سورية الشمالية الأعلى، أمر ملك أمورو بأن يعيد شقيقته إلى أوجاريت ولكن هناك خلاف بين الباحثين حول مصير هذه الملكة. فمنهم يرى أنها نفيت إلى إحدى مدن عمورو، والآخر يرى أنها أعيدت إلى أوجاريت حيث نفذ فيها الملك الأوجاريتي حكم الموت. ومن ناحية أخرى، خيّر ابنها البكر المدعو أوتريشاروما بين أن يبقى ولياً لعهد أوجاريت أو أن يلحق بوالدته. ولما كان أوتريشاروما لم يجلس على العرش بعد وفاة والده عميشيرو الثاني فربما توفي قبل والده أو أنه لحق بأمه^(٢٤).

الزيجات السياسية في الألف الأول ق. م.

شهد الألف الأول ق. م. تغيراً كبيراً على صعيد القوى السياسية الكبرى التي كان لها دور سياسي أو عسكري مؤثر في عالم الشرق القديم. فالدولة المصرية في الألف الأول ق. م، أصابها ضعف شديد بحيث فقدت إمبراطوريتها وخاصة ممتلكاتها السورية. والدولة الحثية زالت من الوجود بشكل نهائي وحلّت محلّها في آسيا الصغرى مجموعة من الدويلات الصغيرة المتنافسة فيما بينها. وبالمقابل تعاظمت في هذه المرحلة القوة الآشورية التي أصبحت بين القرنين التاسع والسابع ق. م، القوة الوحيدة في الشرق القديم. ورغم أن الآشوريين اعتمدوا على جيشهم لفرض هيمنتهم على جيرانهم، إلا أنهم لم يغفلوا دور الوسائل السياسية في ترسيخ هذه الهيمنة. وكانت الزيجات السياسية إحدى الوسائل التي اتّبعها ملوكها في هذا السبيل.

ولكن الأمر المؤثر الذي لا بد من الإشارة إليه هنا، هو أنه في ظلّ انعدام القوى الكبرى في المنطقة، فإن الملوك الآشوريين زوجوا بناتهم من ملوك إقليميين بهدف فرض هيمنتهم على هؤلاء الملوك أو بهدف كسب حلفاء لهم في أماكن متوترة. وسنعرض هنا لبعض حالات الزواج هذه.

فالملك الآشوري شاروكين الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) زوج ابنته الأميرة آخاتا بيشا من ولي عهد طابال الأمير أمباريس الذي جلس على العرش مكان والده خولي. ولكن وفيما يبدو، فإن شاروكين لم يكن واثقاً جداً من صهره، لذلك وضع جواسيس في قصره يخبرونه بما كان يجري في القصر الطابالي، وبالاتصالات التي كان يجريها ملك طابال مع غيره من الملوك والحكام. وجاءت الأخبار إلى شاروكين الثاني من قبل مدير قصر آخاتا بيشا المدعو نابو- لي بأن صهره قد أرسل رسلاً إلى كل من روسا ملك أورارتو وميتا ملك الموشكيين. ومن المعلوم أن هذين الملكين كانا في حالة حرب مع الآشوريين.

ولذلك فإن شاروكين اعتبر هذه الخطوة من قبل صهره بمثابة خيانة له، فسارع إلى إرسال جيوشه التي قامت بتدمير طابال ونقل ملكها مع أهلها وأشرف بلده إلى آشور^(٢٥).

والزواج الثاني الذي نعرضه هو قيام الملك الآشوري أسرحدون بتزويج ابنته من زعيم القبائل السكيفية، التي بدأت بالاقتراب من الحدود الآشورية. وكانت غاية أسرحدون من هذا الزواج كسب هذا الزعيم إلى جانبه أولاً وإبعاده عن التحالف القوي الذي جمع الميديين والمانيين والكيمنيين^(٢٦).

أو هذا الذي نفهمه على الأقل من خلال نص يعود إلى الملك الآشوري أسرحدون. وقد صيغ النص على شكل سؤال وجهه الملك إلى الإله شمش "شمش السيد الكبير، أريد منك إجابة موثوقة عن السؤال الذي سأطرحه عليك.

بارتاتوا، ملك السكيف الذي أرسل الآن (رسولاً) إلى أسرحدون ملك آشور {...} - إذا أعطى أسرحدون ماك آشور، بارتاتوا ملك السكيف ابنته كزوجة {...هل كان سيدخل معه} بارتاتوا ملك السكيف {في تحالف}، هل سيعطي كلمة (وعداً) بالسلام والولاء والصداقة إلى أسرحدون ملك آشور. هل سيلتزم بقسم الولاء لأسرحدون، ملك آشور حقاً- ألوهيتك العظيمة تعرف^(٢٧).

ويبدو أن النتيجة كانت إيجابية، فمنذ عصر أسرحدون أصبح السكيف حلفاء خاصين للآشوريين، وابن بارتاتوا الذي تذكره المصادر باسم مادي كان خادماً مخلصاً لملك آشور المقبل آشور باننيال^(٢٨).

ونشير هنا إلى أن الملوك الآشوريين لم يكتفوا بإعطاء بناتهم كزوجات لحكام آخرين وإن كانوا أقل مكانة منهم، بل تزوجوا هم أيضاً من أميرات أجنبيات.

فمثلاً الملك شمشي حدد الخامس (٨٢٣-٨١٠ ق.م.) تزوج من الأميرة البابلية شمورامات والتي أصبحت بعد وفاته وصية على ابنه الطفل حدد نيراري الثالث (٨٠٩-٨٠٤ ق.م.) ويبدو أنه وبتأثير منها ارتبط هذا العاهل الآشوري بعلاقة صداقة متينة مع البابليين وحلّ الكثير من مشاكل الحدود معهم بالطرق السلمية. كما وأن ازدياد مكانة الإله البابلي نابو بين الآشوريين وبناء معابد خاصة به في آشور كان أيضاً بتأثير من هذه الأميرة البابلية.

كما أن الملك سينحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق.م.) تزوج من امرأة تسميها المصادر الآشورية "زاكوتو" بمعنى الظاهرة النقية، ويعتقد أنها إما كانت من أصل آرامي أو فلسطيني. ويعتقد أنه كان لها دور كبير في اعتلاء أصغر أبناء سينحاريب الأمير أسرحدون للعرش الآشوري، كما أنها ساهمت في اعتلاء آشور باننيال العرش بعد وفاة والده أسرحدون. ولما دب الخلاف بين آشور باننيال وشقيقه شمش شوم أو كين

ملك بابل، أرسلت إلى الملك البابلي رسالة تطلب فيها منه أن "لا ينقض القسم" وأن لا يقوم في وجهها ووجه آشور بانييال الذي تسميه "ملك آشور، سيدك".

بهذا الشكل نكون قد عرضنا لبعض أهم الزيجات السياسية التي شهدتها المشرق العربي القديم في الفترة الواقعة بين نهاية الألف الثالث ق. م. وحتى منتصف الأول ق. م.، وإن كان التركيز أكثر على فترة الألف الثاني ق. م. وذلك بسبب طبيعة المصادر المتوفرة حول الموضوع. ونشير أخيراً إلى أن علاقة المصاهرة هذه غالباً ما كانت تتويجاً لمسيرة طويلة من العلاقات، غالباً ما تراوحت بين حروب وعلاقات سلمية، وهذه العلاقات السلمية ما كانت لتحدث إلا لشعور الطرفين بعدم قدرتهم على تحقيق نصر على الطرف الآخر، أو لظهور مستجدات جديدة في الوضع الدولي، تدفع هذه الدول إلى تناسي خلافاتها السابقة والدخول في تحالفات جديدة تكون موجهة ضد قوة جديدة ظهرت على المسرح السياسي، مثلما حدث مثلاً عندما ظهرت القوة الحثية مجدداً في نهاية القرن الخامس عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر ق. م. مما دفع بالميتانيين والمصريين للدخول إلى حلف موجه ضدهم. وبالتالي فإن علاقة المصاهرة هذه كان يمكن أن تفقد أي دور لها في حال ظهور مستجدات جديدة. فعندما هاجم شوبيلوليوما الملك الحثي الدولة الميتانية، لم يهب المصريون لنجدتهم رغم علاقات المصاهرة العديدة التي كانت تربط الطرفين، وذلك لانشغال امنحوتب الرابع أختانتون بمشاكله الداخلية الناجمة عن حركته الدينية. وعندما تعرضت الإمبراطورية لهجوم شعوب البحر والذي أدى إلى زوالها من الوجود، لم يحرك المصريون قواتهم للدفاع عن الحثيين، رغم المعاهدة التي كانت تربط الدولتين وعلاقة المصاهرة التي كانت تجمعهم، وإنما انشغل المصريون بالتحضير لصد هذا الهجوم، الذي بدأ يقترب من حدودهم، تاركين حلفاء الأس لمصيرهم المحتوم.

الهوامش والحواشي

- (١) ياكوبسون: ١٩٨٧، ص ١٨.
- (٢) سلالة أور الثالثة: أسرة حكمت في بلاد الرافدين واتخذت من مدينة أور (تل المقير حالياً) عاصمة لها في الفترة ما بين ٢١١٢-٢٠٠٣ ق.م. وكان من أشهر ملوكها أور نامو وشولجي. لمزيد من المعلومات حول هذه الأسرة الحاكمة ومناطق نفوذها انظر كتابنا: تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي. منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٧، ص ٧٩ وما بعدها.
- (٣) ياكوبسون: ١٩٨٧، ص ١٩-٢٠.
- (٤) ياكوبسون: ١٩٨٧، ص ٢١.
- (٥) حول هذه الرسائل والرحلة انظر شكل موسع في بحث الدكتور فيصل عبد الله المنشور في دراسات تاريخية، العدوان ٤٥-٤٦، ١٩٩٣، ص ١٠١ وما بعدها.
بمعنوان: رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سورية في القرن الثامن عشر ق.م.
- (٦) أندرية بارو: ١٩٧٩، ص ١٧٥-١٧٦.
- (٧) أرشيف العمارة، هو أرشيف القصر الملكي المصري في عهد الملك امنحوتب الرابع الذي اتخذ من أخت آتن (العمارة) عاصمة له بعد أن هجر العاصمة طيبة. ويضم الأرشيف مجموعة الرسائل تبادلها الملك امنحوتب الرابع ووالده امنحوتب الثالث مع عدد من ملوك وحكام الدول التي كانت قائمة في سورية وبلاد الرافدين وآسية الصغرى. وقد نشرت هذه الوثائق المكتوبة بالخط المسماري وباللغة الأكادية عدة مرات ولغات مختلفة ولكنها للأسف لم تترجم إلى

اللغة العربية، رغم أهميتها الفائقة حتى الآن. ونحن في عملنا هذا سنعتمد على :

The Amarna Letters: Edited and translated by William L. Moron

(٨) لمزيد من المعلومات حول الدولة الكاشية وملوكها انظر في كتاب عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم لعصور حتى العام ٥٣٩، ص ٩٣-١٠٠.

(٩) السوتو هم القبائل البدوية التي كانت منتشرة في منطقة البادية السورية وكانت على علاقة عدائية مع القوى المستقرة في المنطقة السورية الرافدية حول السوتو انظر في : Calaghan Aram Naharin Rom 1948 ، ص ٩٤ وما بعدها.

(١٠) حول الطرق التجارية في منطقة المشرق العربي القديم يمكن مراجعة مقالنا الذي نشر في كتاب فعاليات الأسبوع الثقافي الرابع لقسم التاريخ والذي حمل عنوان: الطرق التجارية ووسائط النقل في بلدان المشرق العربي القديم خلال الألفين الثاني والأول ق.م.

(١١) حول محاولة الحثيين فرض سيطرتهم على شمال سورية في هذه الفترة انظر: غيور غادرة، غ، غ: صراع الحثيين من أجل شمال سورية VDV العدد ١٩٦٤ /٤/.

(١٢) حول الصراع الحثي المصري في سورية وتحركات شوبيلوليوما انظر في كتاب: هورست كلينغل: تاريخ سورية السياسي منذ ٣٠٠٠-٣٠٠ ق.م.، ترجمة سيف الدين دياب، مراجعة وتدقيق د. عبد الله مرعي، دمشق، دار المتنبي، ط١، ١٩٨٨.

(١٣) حول هذه الحروب انظر كتابنا: قابلو، جباع: تاريخ مصر القديم، تعز ٢٠٠١، ص ١٤١-١٤٨.

(١٤) ستويتشفسكي: ١٩٨٧، ص ٧٥.

- (١٥) ستويشفسكي: ١٩٨٧، ص ٧٦-٧٨.
- (١٦) حول بنود اتفاق السلام هذا انظر: توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية.
- (١٧) العيد الثلاثين أو عيد السد، ربما يعني عيد النهاية، وكان من المفروض أن يحتفل الفرعون به بعد ثلاثين عاماً من حكمه أو من بداية اختياره لولاية العهد، ويقام فيه مراسيم وطقوساً يشكر بها أربابه على ما وهبوه من طول العمر وطول الحكم. ويعتقد هو أو يعتقد رعاياه أنه يستطيع عن طريق هذه الطقوس والمراسيم أن يجدد بأسسه ويستزيد من القدرة على مواصلة الحكم. ولم يكن الفراعنة يلتزمون دائماً بفترة الثلاثين عاماً، وإنما كانوا يتهينون لعيدهم كل فرصة تهباً فيها نصر عظيم، أو خروجاً من مأزق شديد، وربما أعادوه أكثر من مرة طالما توفر بهم امتداد الحكم وسعة الإمكانيات.
- (١٨) ستويشفسكي: ١٩٨٧، ص ٧٨.
- (١٩) أرد زينبا، ف، غ، ١٩٨٧، ص ١١٤-١١٥.
- (٢٠) سوتيج هي التسمية الأكادية لاسم الإله المصري ست.
- (٢١) ستويشفسكي: ١٩٨٧، ص ٧٨-٩٠.
- (٢٢) محمد علي سعد الله: ١٩٨٨، ص ٢٠٨-٢١٠.
- (٢٣) أرد زينبا، ف، غ، ١٩٨٧، ص ١١٠.
- (٢٤) شيفمان: ١٩٨٨، ص ٣٦-١٣٧، كلينفل، ١٩٩٨، ص ١٥٦.
- (٢٥) ARA, T1,25,55.
- (٢٦) دياكونوف، ١٩٥١، النص رقم ٥٨.
- (٢٧) سولوفيونا س. س، ١٩٨٧، ص ١٥٣.
- (٢٨) دياكونوف، ١٩٥١، النص رقم ٦٨.

مراجع البحث

- (١) أرد زينبا، ف. غ. الإمبراطورية الحثية، في كتاب: العلاقات بين الدول والدبلوماسية في الشرق القديم. تحرير ستويتشفسكي موسكو، ١٩٨٧.
- (٢) بارو ، أندريه: ماري، ترجمة رباح نفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩.
- (٣) دياكونوف، أي. م: المصادر البابلية- الآشورية المتعلقة بتاريخ أورارتو، مجلة أخبار الشرق القديم، العددان ٢ و ٣، ١٩٥١.
- (٤) ستويتشفسكي: مصر القديمة، في كتاب العلاقات بين الدول والدبلوماسية في الشرق القديم. تحرير ستويتشفسكي موسكو، ١٩٨٧.
- (٥) سليمان توفيق: دراسات في حضارات غرب آسية منذ أقدم العصور حتى العام ١٩٠٠ ق.م. دمشق، ١٩٨٥.
- (٦) سولوفيوفاس.س، الإمبراطورية الآشورية في كتاب العلاقات بين الدول...
- (٧) سعد الله، محمد علي: الدور السياسي للملكات في مصر القديمة، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٨.
- (٨) شيفمان، إ. ش: مجتمع أوغاريت، دار الأبجدية، دمشق ١٩٨٨.
- (٩) عبد الله فيصل: رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سورية (في القرن الثامن عشر)، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤٥ و ٤٦، ١٩٩٣.
- (١٠) غيور غاندزه، غ، غ: صراع الحثيين من أجل شمال سورية، VDV العدد ٤، العام ١٩٦٤.

(١١) قابلو، جباغ: الطرق التجارية ووسائل النقل في بلدان المشرق العربي القديم خلال الألفين الثاني والأول ق.م. في كتاب فعاليات الأسبوع الثقافي الرابع لقسم التاريخ ٦-١٠/ آذار ١٩٩٩، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٠:

- تاريخ مصر القديم - تعز، ٢٠٠١.

- تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي - منشورات جامعة دمشق ١٩٩٦.

(١٢) كلينغل، هورست: تاريخ سورية السياسي ٣٠٠-٣٠٠ ق.م.، ترجمة سيف الدين دياب، ومراجعة وتدقيق د. عبد الله مرعي، ط ١، ١٩٩٨.

(١٣) مرعي، عيد: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى العام ٢٣٩ ق.م. دار الأبجدية، دمشق، عام ١٩٩٦.

(١٤) ياكوبسون، ف. آ. : بلاد الرافدين في العصور القديمة، في كتاب العلاقات....

مراجع أجنبية:

The Amarna Letters: Edited and translated by William L. Moron

Calaghan Aram Naharin Rom 1948 Luckenbill.

D.D Ancient Records of Assyria and Babylonia. Chicago. 1927.